

عتاب إلهي بليغ



«يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَتَنَزَّلُوهَا نَفْسٌ مَّا قَدَّ مَاتَ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (الحشر/ 18).

إنَّ هذه الآيات من أبلغ الآيات المُشيرة إلى مسألة مراقبة النفس. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ...) ليست التقوى إلا الكفَّ عمَّا لا يُرضي الله عزَّ وجلَّ: عملاً بالواجب، وإنهاءً عن المحرِّم.

(وَلَا تَتَنَزَّلُوهَا نَفْسٌ مَّا قَدَّ مَاتَ لِغَدٍ...) إنَّ الأمر بالتقوى خطاب للمسلمين وللمؤمنين: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ...)؛ ولكن عندما يصل الأمر إلى المحاسبة، فإننا نلاحظ التغيير في لحن الآية: (وَلَا تَتَنَزَّلُوهَا نَفْسٌ مَّا قَدَّ مَاتَ لِغَدٍ...)، ففي صدر الآية هناك خطاب وهو: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)؛ ولكن (وَلَا تَتَنَزَّلُوهَا...) فإنَّه كلام مع الغائب، وليس هناك مواجهة في الخطاب.. يقول البعض - ونرعم ما يقول - بأنَّ هذه الآية لا تخلو من عتاب، ومن تقريع مُبطَّن.. وكأنَّ الله عزَّ وجلَّ يُريد أن يقول: أُخاطب مَنْ؟! .. فالأمر بالتقوى يمكن أن أُخاطب به المؤمنيد؛ لكن مراقبة النفس أمرٌ صعب..

(وَلَا تَتَنَزَّلُوهَا نَفْسٌ مَّا قَدَّ مَاتَ لِغَدٍ...) وفي غاية الندرة..

(وَاتَّقُوا اللَّهَ...) فمن دون الاهتمام البليغ بمحاسبة النفس ومراقبتها، كأنَّ هذه التقوى لا تتم..

ثمَّ تقول الآية: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنَسَاهُمْ أَنزَفْنَاهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)، إنَّ نسيان الله - عزَّ وجلَّ - قد يجتمع مع الطاعة.. فإنَّ الإنسان قد يعمل في

شركة لسنوات طويلة، ويؤدّي واجبه اليومي.. وينسى صاحب العمل.. فهو يعمل بشكل تلقائي؛ ولكن لا يذكر صاحب الأمر.. وهكذا فإنّ بعض الناس قد يطيع ربّ العالمين؛ ولكنه لا يعيش حالة الذّكر الدائم. فإذا، إنّ نسيان الله - عزّ وجلّ - يكون تارة بعدم الاعتراف به والتحدّي، وهو الكفر.. وتارة يكون نسيان صاحب العمل في مقام العمل.

(أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) إنّ هذه الآية لا تقول: أولئك هم الخاسرون.. فالذي نسي الله - عزّ وجلّ - في عرفنا أنه إنسان غافل؛ ولكنّ القرآن الكريم يقول: (أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) فنسيان الله - عزّ وجلّ - إمّا هو فسقٌ خفي، أو مقدّمة لفسقٍ جليّ.

(لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ...) إنّ هذه الآية فيها أيضاً عتابٌ مُّبِطٌ.. إنّها تقول: يا بني آدم! لقد أنزلنا عليك القرآن الكريم، وأمرناك بتلاوته، وجعلناك أهلاً لتحمل معانيه.

ولكننا كيف نتفاعل مع القرآن الكريم، إنّ بعضاً منّا لا يعيش أدنى درجات الخشوع مع كتاب يتصدّع الجبل له. ثمّ يبدأ بختم بسورة الحشر بآيات ربوبية: (هُوَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُؤْتَمِنُ الْأَعَزُّ الْغَنِيُّ الْغَالِبُ) * هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنسَانَ الْمُسَوِّرَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) فحسب الظاهر أنّ هذه أسماء الله الحسنى؛ ولكن هناك ترابط بليغ مع آيات المراقبة، فقد بدأت الآية بذكر الله - عزّ وجلّ - ، وهو أن لا ننسى الله - عزّ وجلّ - (وَلَا تَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ...)؟ لماذا؟ لأنك ستُلاقى هكذا رب، أي بما أنّي مادمت أرجع لربّ بهذا الجلال فهو أهل لأن يُراقب، وأهل لأن يُذكر.. فكأن ختم هذه الآيات تشجيع للعبد على أن يلتزم بالمراقبة الدقيقة المستوعبة لكل لحظة من لحظات الحياة.

إنّ التدبّر في القرآن الكريم، هو مفتاح التكامل.. وهذه الآيات مفتاح الفلاح، لأنها تؤكّد على عنصر جوهرى، وهو مسألة المراقبة، والمراقبة متوقفة على معرفة المراقب.. فإذا، علينا التدبّر في هذه الآيات، واتخاذها ورداً في كلّ يوم.. لتكون عنصر ردعٍ وتذكير للمؤمن، كلاً ما أراد أن ينسى ربّه جلّ وعلا. ▶